مجلة المجمع العلمي العربي

آذار ونيسان سنة ١٩٤٥ شهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣٦٤

# بقية ماترك الأجداد

اذا نظر المرء نظر المفكر المقدر فيما وصل الينا من كتب علماء العرب يعجب لتفننهم في التأليف وابداعهم فيه واكثارهم من الخوض في كل ما خطر لهم ببال في تلك العصور المظلمة عند الأمم الأخرى ، ومتى بحث الباحث في تراجم العلماء والأدباء يزيد عجبه كثر اذ يثبت له انه لم يعرف سوى جزء ضئيل مما كتبوا والباقي أتت عليه الكوارث .

وكنت أقدر ان النسبة بين الموجود والمفقود نسبة واحد الى عشرة فلما زاد اطلاعي أيقنت ان الموجود واحد من اربعين او خمسين وربما أقل لأن من المؤلفين من كتبوا كالجاحظ ثلثمائة وخمسين مصنفاً بين كتاب ورسالة فما بقي منها خمسة وعشرون كتاباً ورسالة والباقي فقد ، ومن المؤلفين من كتبوا مئة كتاب ورسالة فلم يبق منها سوى كتاب واحد ومنهم من كتبوا عشرات من الكتب ولم يبق منها كتاب ولا رسالة .

ومن المكثرين من التأليف والمجودين فيه امام اساء اليه المجتمع بقدر ما احسن هو اليه . ومن اعظم اساءته اليه انه لم يبق من عشرات من المصنفات وضعها في حياته سوى رسالة صغيرة في الأخلاق كانت الغاية في الابداع وضعاً وتنسيقاً . وهذا الامام هو ابوحاتم محمد بن حبان البستي الذي ألف تآليف لم يسبق اليها ورواها عنه الثقات الاثبات وانتظمت له الامامة في الدين فعد صحيحه في الحديث أصح من سنن ابن ماجه وعرف الى ذلك الطب والنجوم . هذا الامام لم يترجم له المحدثون ولا الفقهاء ولا المتكلمون ولا الأدباء ولا اللغويون ولا الأطباء ولا المنجمون ، ولولا ما ترجم له ياقوت في مادة بست من معجم البلدان لما عرفنا



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عنه شيئاً يذكر من الكتب . ولا يبعد ان يكون اصحاب التراجم قد وفوه حقه ولكن الكتب التي وصلت الينا لم تشر الى ذلك .

هذا الرجل الذي رحل في طلب الحديث في بلاد الاسلام ( توفي سنة ٣٥٤ ) وسمع عن خلائق لا يحصون في خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر والجزيرة وغيرها ، ولعله كما قال عن نفسه كتب عن الف شيخ ما بين الشاس والاسكندرية — هذا الرجل كان عالماً بالمتون والأسانيد وأخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيره وكانت الرحلة في خراسان الى مصنفاته وقد وقفها وجعلها في دار مسبلة ، وأقام مسكناً للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والفقه ، وجعل لهم جرايات يستنفقونها داره ، وأوصى ببذل كتبه لمن يريد نسخ شيء منها من غير أن يخرجها من داره .

هذا الرجل العظيم حياً وميتاً هو الذي أغفل كتّاب السير الترجمة له ، وهو من أصل عربي يتصل نسبه بالياس بن مضر ، وقد تولى القضاء أعواماً طويلة في سمرقند وغيرهـا ثم صرف عن القضاء بدعوى أنه زعم ان النبوات علم وعمل . والغالب أن سبب انصراف الوجوه عنه كونه صنف لأبي الطيب المصعبي كتاباً في القرامطة ، وقيل ان الخليفة قتله بدعوى انه يعرف بعض العلوم الرياضية ، وهو في الثمانين من عمره . وقيل مات حتف أنفه والله اعلم .

والكتاب الباقي من جميع ما عُني بتأليفه هذا البُستيّ الجليل هو ( روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ) أحياه بالطبع أستاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله . وقد قسمه الى مطالب في أدب النفس ناهزت الخمسين مطلباً مثل لزوم التقوى والعلم والصمت والحياء وترك القِحة ولزوم التواضع ومجانبة الكبر والتحبب الى الناس ومداراتهم وافشاء السلام والمزاح المباح والاعتزال عن الناس ومؤاخاة الخاصة وكراهية المعاداة والتلون ومجانبة الحرص للعاقل والتحاسد والتباغض ومجانبة الغضب والطمع ولزوم القناعة والتوكل والرضا والعفو وصفة الكريم واللئيم والزجر عن قبول الوشاة وكتمان السر والنصيحة للمسلمين كافة والزجر عن التهاجر ولزوم الحلم عند الأذى واباحة جمع المال للقائم بحقوقه والحث على اقلمة المروآت والزجر عن قبول الهدايا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقضاء الحوائج والحث على طلب المعالي وإطعام الطعام والمجازاة على الصنائع والحث على سياسة الرياسة ورعاية الرعية وغير ذلك مما يستفيد منه الكبير والصغير ويتأدب به الأمير والأجير ويغني غناءه للرجال والنساء على السواء .

وهو يفتتح كل فصل بحديث صحيح ثم يشفعه بكلام منظوم أو منثور ينقله بالرواية ، ومنظومه كله مما يجدر بالناشئة حفظه لسلاسته وكثرة حكمه ، ثم يتكلم من عنده كلاماً يدل على العقل الواسع والعلم النافع وقد يورد في أكثر الفصول قصصاً تروق العامة والخاصة معاً . نسق تأليفه تنسيقاً عجيباً لم يخل به من أوله الى آخره حتى جاءت للمطالب كلها متساوية بالحجم والفائدة آخذة من الحسن والاحسان بنصيب وافر . وجودة الأسلوب التي عرفت بها مصنفات الافرنج لعهدنا تجدها على أتمها في المجودين للتأليف في عصور الارتقاء الاسلامي ، وهذا الكتاب نموذج صالح منها .

قال ابو حاتم : لا يكون المرء بالمصيب في الأشياء حتى تكون له خبرة بالتجارب ، والعاقل يكون حسن المأخذ في صغره ، صحيح الاعتبار في صباه ، حسن العفة عند ادراكه ، رضيّ الشمائل في شبابه ، ذا الرأي والحزم في كهولته ، يضع نفسه دون غايته برتوة (خطوة) ، ثم يجعل لنفسه غاية يقف عندها ، لأن من جاوز الغاية في كل شيء صار الى النقص ، ولا ينفع العقل الا بالاستعمال ، كما لا تنفع الأعوان الا عند الفرصة ، ولا ينفع الرأي الا بالانتحال ، كما لا تتم الفرصة الا بحضور الأعوان . ومن لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه ، أخاف ان يكون حتفه في أقرب الأشياء اليه . ورأس العقل المعرفة بما يمكن كونه قبل ان يكون ، والواجب على العاقل ان يجتنب أشياء ثلاثة فانها أسرع في افساد العقل من النار في يبس العوسج . الاستغراق في الضحك ، وكثرة التمني ، وسوء التثبت . لأن العاقل لا يتكلف ما لا يطيق ، ولا يسعى الا لما يدرك ، ولا يَعِد الا بما يقدر عليه ، ولا ينفق الا بقدر ما يستفيد ، ولا يطلب من الجزاء الا بقدر ما عنده من الثناء ، ولا يفرح مما نال الا بما أجدى عليه نفعه منه ، والعاقل يبذل لصديقه نفسه وماله ، ولمعرفته رِفده ومحضره ، ولعدوه عدله وبره ، وللعامة بشره وتحيته ، ولا يستعين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الا بمن يجب ان يظفره بحاجته ، ولا يحدث الا من يرى حديثه مغنماً ، الا ان يغلبه الاضطرار عليه ، ولا يدعي ما لا يحسن من العلم ، لأن فضائل الرجال ليست ما ادعوها ولكن مانسبها الناس اليهم ، ولا يبالي مافاته من حطام الدنيا ، مع ما رزق من الحظ في العقل .

قال أبو حاتم : كفى بالعاقل فضلاً وان عدم المال بأن تصرف مساوئ اعماله الى المحاسن ، فتجعل البلادة منه علماً ، والمكر عقلاً ، والهذر بلاغة ، والحدة ذكاء ، والعي صمتاً ، والعقوبة تأديباً ، والجرأة عزماً ، والجبن تأنياً ، والاسراف جوداً ، والامساك تقديراً ، فلا تكاد ترى عاقلاً الا موقراً للرؤساء ، ناصحاً للأقران ، مواتياً للإخوان ، متحرزاً من الأعداء ، غير حاسد للأصحاب ، ولا مخادع للأحباب ، لا يتحرش بالأشرار ، ولا يبخل في الغنى ، ولا يشره في الفاقة ، ولا ينقاد للهوى ، ولا يجمح في الغضب ، ولا يَمرحُ في الولاية ، ولا يتمنى ما لا يجد ، ولا يكتئز اذا وجد ، ولا يدخل في دعوى ، ولا يشارك في مراء ، ولا يدلي بحجة ، حتى يرى قاضياً ، ولا يشكو الوجع الا عند من يرجو عنده البرء ، ولا يمدح أحداً الا بما فيه ، لأن من مدح رجلاً بما ليس فيه فقد بالغ في هجائه ، ومن قبل المدح بما لم يفعله فقد استهدف للسخرية . والعاقل يكرم على كل حال ، كالأسد يهاب وان كان رابضاً ، وكلام العاقل يعتدل كاعتدال جسد الصحيح ، وكلام الجاهل يتناقض كاختلاط جسد المريض ، وكلام العاقل وان كان نزراً حُظوة عظيمة ، كما ان مقارفة المأثم وان كان نزراً مصيبة جليلة . و ن العقل التثبت في كل عمل قبل الدخول فيه ، وآفة العقل العجب ، بل على العاقل ان يوطن نفسه على الصبر على جار السوء ، وعشير السوء ، وجليس السوء ، فان ذلك مما لا يخطيه على ممر الأيام ، ولا يجب للعاقل ان يحب ان يُسمى به لأن من عرف بالدهاء حذر ، ومن عقل العاقل دفن عقله مااستطاع ، لأن البذر وان خفي في الأرض اياماً فانه لا بد ظاهر في اوانه ، وكذلك العاقل لا يخفى عقله وان اخفى ذلك جهده ، وأول تمكن المرء من مكارم الأخلاق هو لزوم العقل . اهـ

ومن الحكايات التي ساقها قوله : سمعت اسحق بن القطان البغدادي بتستر يقول : كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء ( يعني الفقهاء والعباد ) ، كان يتفقد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصالحين ويتعاهدهم فقال لي : دخلت يوماً على احمد بن حنبل فاذا هو مغموم مكروب فقلت : ما لك يا أبا عبد الله . قال : خير . فقلت : ومع الخير . قال : امتحنت بتلك المحنة حتى ضُربت ثم عالجوني وبرأت ، إلا انه بقي في صلبي موضع يوجعني ، وهو اشد عليّ من ذلك الضرب . قال : قلت : اكشف لي عن صلبك ، قال : فكشف لي فلم أرَ فيه إلا أثر الضرب فقط ، فقلت : ليس لي بذا معرفة ولكن سأستخبر عن هذا ، قال : فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس ، وكان بيني وبينه فضل معرفة ، فقلت له : أدخل الحبس في حاجة ، قال : أدخل ، فدخلت وجمعت فتيانهم ، وكان معي دريهمات فرقتها عليهم ، وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بي ، ثم قلت : من منكم ضُرب أكثر قال : فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثر ضرباً وأشدهم صبراً قال : فقلت له أسألك عن شيء فقال : هات ، فقلت : شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم ، ضرب على الجوع للقتل سياطاً يسيرة إلا أنه لم يمت ، وعالجوه وبرأ إلا أن موضعاً في صلبه يوجعه وجعاً ليس له عليه صبر قال : فضحك ، فقلت : مالك . قال : الذي عالجه كان حائكاً . قلت : ايش الخبر . قال : ترك في صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلعها ، قلت فما الحيلة قال : يُبط صلبه وتؤخذ تلك القطعة ويرمى بها وان تركت بلغت الى فؤاده فقتلته . قال : فخرجت من الحبس فدخلت على احمد بن حنبل فوجدته على حالته ، فقصصت عليه القصة . قال : ومن يبطه ؟ قلت : أنا قال : أو تفعل ؟ قلت : نعم قال : فقام فدخل البيت ثم خرج وبيده مخدتان ، وعلى كتفه فوطة ، فوضع إحداهما لي والأخرى له ، ثم قعد عليها وقال : استخر الله ، فكشفت الفوطة عن صلبه ، وقلت أرني موضع الوجع فقال : ضع اصبعك عليه فإني أخبرك به ، فوضعت اصبعي وقلت : ها هنا موضع الوجع ؟ قال : هاهنا أحمد الله على العافية ، فقلت : ها هنا ؟ قال : هاهنا أحمد الله على العافية ، فقلت ها هنا ؟ قال : ها هنا أسأل الله العافية ، قال : فعلمت انه موضع الوجع قال : فوضعت المبضع عليه ، فلما أحس بحرارة المبضع ، وضع يده على رأسه وجعل يقول : اللهم اغفر للمعتصم حتى بطبطته ، فأخذت القطعة الميتة ورميت بها ، وشددت العصابة عليه ، وهو لا يزيد على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قوله : اللهم اغفر للمعتصم . قال: ثم هدأ وسكن، ثم قال : كأني كنت معلقاً فأصدرت .

ومن أجمل الفصول المسهبة التي استشهد بها المؤلف وصية الخطاب بن المعلى القرشي المخزومي ابنه وفيها يقول : لا تتخذ السوق مجلساً ، ولا الحوانيت متحدثاً ، ولا تكثر المراء ، ولا تنازع السفهاء ، فان تكلمت فاختصر ، وتحفظ من تشبيك أصابعك وتفقيعها ، والعبث بلحيتك وخاتمك ، وذؤابة سيفك ، وتحليل أسنانك ، وادخال يدك في انفك ، وكثرة طرد الذباب عنك ، وكثرة التثاؤب والتمطي وأشباه ذلك مما يستخفه الناس منك ، ويغتمزون به فيك ، وليكن مجلسك هادياً ، وحديثك مقسوماً ، واصغ الى الكلام الحسن ممن حدثك ، بغير اظهار تعجب منك ، ولا مسألة اعادة ، وأغض عن الفكاهات من المضاحك والحكايات ، ولا تحدث عن اعجابك بولدك ولا جاريتك ، ولا عن فرسك ولا سيفك .

واياك وأحاديث الرؤيا فانك ان أظهرت عجباً بشيء منها طمع فيها السفهاء فولدوا لك الأحلام واغتمزوا في عقلك ، ولا تصنّع تصنع المرأة ، ولا تبذّل تبذل العبد ، ولا تهلب لحيتك [1] ولا تبطنها ، وتوق كثرة الحف ، ونتف الشيب ، وكثرة الكحل ، والاسراف في الدهن ، وليكن كحلك غِبّاً ، ولا تلح في الحاجات ولا تخشع الى الطلبات ، ولا تُعلم أهلك وولدك فضلاً عن غيرهم عدد مالك ، فانهم ان رأوه قليلاً هنت عليهم ، وإن كان كثيراً لم تبلغ به رضاهم .

ولا تُهازل أمتك ، واذا خاصمت فتوقر ، ولا تكثر الاشارة بيدك ، وان سفه عليك ، فاحلم واذا هدأ غضبك فتكلم ، وا كرم عرضك ، وألق الفضول عنك ، ولا تجهر بمنطقك كمنازع الأصم ، ولا تُخافت به كتخافت الأخرس ، وتخير محاسن القول بالحديث المقبول ، واذا حدثت بسماع فانسبه الى أهله ، وإياك والأحاديث الغابرة المُشنّعة التي تنكرها القلوب ، وتقفُّ لها الجلود ، واياك ومضعّف الكلام مثل : نعم نعم ، ولا لا ، وعجل عجل وما اشبه ذلك .

واذا توضأت من الطعام فأجد عرك كفيك ، ولا تنَخّع في الطَّسْت ، وليكن طرحك الماء من فيك مسترسلاً ، ولا تمج فتنضح على أقرب جلسائك ، ولا تعض نصف اللقمة ثم تعيد ما بقي منها منصبغاً فان ذلك مكروه ، ولا تكثر الاستسقاء

(١) هلب الشعر نتف ما غلظ منه وتبطين اللحية أن يؤخذ مما تحت الذقن والحنك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على مائدة الملك ، ولا تعب شيئاً مما يقرب اليك على مائدته بقلة خل أو تابل أو عسل .

تشبه بأهل العقل تكن منهم ، وتصنع للشرف تدركه ، واعلم ان كل امرىء حيث وضع نفسه ، وانما ينسب الصانع الى صناعته ، والمرء يعرف بقرينه .

قال : امنح البشر جليسك ، والقبول من لاقاك ، واياك وكثرة التبريق والتزليق ، فان ظاهر ذلك ينسب الى التأنث ، واياك والتصنع لمغازلة النساء . ذم الجاهل اياك أفضل من ثنائه عليك ، ومعرفة الحق من اخلاق الصدق ، والرفيق الصالح ابن عم ، ومن أيسر أكبر ، ومن افتقر احتقر ، قصر في المقالة مخافة الإجابة ، والساعي اليك غالب عليك .

والحاصل فإن كتاب روضة العقلاء وثيقة في الأخلاق بديعة وفيها من أدب القدماء مالا يرى مثله في جماله الا في الأمهات العظيمة وفيه من الطرائف كل مفيد جديد . قال المؤلف بعد اسناد أورده ، قال شعيب بن حرب قال لي شعبة : عقولنا قليلة فاذا جلسنا مع من هو أقل عقلاً منا ذهب ذلك القليل واني لأرى الرجل يجلس مع من هو أقل عقلاً منه فأمقته . وقال حدثنا يحيى القطان عن شعبة : من الناس من عقله بفنائه ومنهم من عقله معه ومنهم من لا عقل له فأما الذي عقله معه فالذي يبصر ما يخرج منه قبل أن يتكلم ، وأما الذي عقله بفنائه فالذي يبصر ما يخرج منه بعد ان يتكلم ومنهم من لاعقل له . فحدثت به عبد الرحمن ابن مهدي بعد ما رجعنا من عند يحيى فقال : هذه صفتنا يعني الذي عقله بفنائه . واستحسن الكلام وقال : لا ينبغي أن يكون هذا من كلام شعبة لعله سمعه من غيره .

وينقل مؤلفنا نكتاً كثيرة يلوّن بها موضوعه ويدخل فيه كل ما يتعلم منه ويُثقف ومن هذه النكات ما رواه بسنده عن ابراهيم بن شماس قال قال لي الاكاف حفص بن حميد صاحب ابن المبارك بمرو : يا ابراهيم صحبت الناس خمسين سنة فلم أجد أحداً ستر لي عورة ولا وصلني اذا قطعته ولا أمنته اذا غضب فالاشتغال بهؤلاء حمق كثير . وروى عن بعض الحكماء قال : اثنان ظالمان رجل أهديت له النصيحة فاتخذها ذنباً ، ورجل وسع له في مكان ضيق فجلس متربعاً .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net